الفصل الثاني

سقوط متوقع

خرجت من غرفة الاجتماعات بالشركة بعد اجتماع استمر لمدة ساعتين ، ناقشت فيه بعض الموضوعات الهامة مع رؤساء أقسام الشركة، وأنا أعبُّ الهواء في صدري عبًا ، وأملأ رئتيّ به لأحاول أن أنفض عن ذهني فكرة الاستغناء عن بعض هؤلاء الموظفين الذين يملؤن علينا تلك الحياة ونَفْيِهم لكوكب الكسالى – إن وجدوا مكانًا شاغرًا هناك – فليس لهم مكان بيننا على تلك الأرض العاملة كخلية نحل لا تعرف الهدوء أو الانتظار .

عدت لمكتبي ، وطلبت قدحًا من القهوة ، وهو الثالث منذ الصباح. وبينما أنا مستغرق في عملي إذ شعرت بدوار مفاجئ استمر معي للحظات ، وعدت لحالتي الطبيعية ، لم أعر الأمر انتباهًا ، وانطلقت متابعًا ما بدأته من عمل .

بعد يومين ، وقبل ذهابي للعمل ، عاودني ذلك الشعور المفاجئ بالدوار ، ولما رأتني زوجتي سألتني ماذا بك فأخبرتها بأنها المرة الثانية

التي أشعر فيها بهذا الدوار فنصحتني أن أعرِّج على طبيبي لأطمئن، وفعلت ، فقال لي الطبيب : " لابد لك من أخذ إجازة ، وإلا فعاقبة ذلك لن تكون محببة إليك .. شكرته وسألته" هل من مرض ما؟" فقال " لا ولكنك على الأعتاب ، والمثل الفرنسي يقول" لا مرتين بغير ثالثة "فشرب خمسة أقداح من القهوة يوميًا ، وعدم ممارسة الرياضة، وتلك الكيلوجرامات الزائدة عن الحد التي يتحملها جسدك، كل ذلك كفيل بحجز إقامة دائمة لك في العناية المركزة" .

تركته وانصرفت لعملي وأنا أفكر في كلامه بجدية ، ولِمَ لا آخذ إجازة بالفعل وأذهب لأقضي وقتًا ممتعًا مع أسرتي في مكَان هادئ بعيدًا عن زحام تلك الحياة التي أعيشها ؟ وأخبرت العاملين عندي في الشركة أنني عازم على أخذ إجازة لمدة أسبوع ، وأوكلت الأمور لبعض الأشخاص الذين أثق فيهم ، وأثناء عودتي للبيت كنت أتخيل فرحتهم عندما أخبرهم بما أنتوي عمله وكيف ستغمرهم السعادة والبهجة ، ومضيت أخطط للرحلة في خيالي ، فالأولاد في عطلة الآن والوقت مناسب تمامًا .

ولما عدت للبيت أخبرت الأولاد أنني أريدهم كلهم على الغداء

مجتمعين لأخبرهم بشيء ما ، ولما جلسنا جميعًا أخبرتهم بشأن تلك الرحلة ، وكم كانت صدمتي كبـيرة ، فالاستهجان الذي علا وجوههم أخبرني بكلام لم أسمعه من قبل ، فابني الأكبر رفض بشدة وقال أنه ليس مستعدًا للذهاب معنا في أي مكان ، وابنتي قالت أنها أيضًا ليست في حاجة لرحلة كئيبة معنا ، والولد قال أن عنده مباريات هامة ، أما الصغرى فكانت هي الوحيدة التي قفزت من مكانها فرحة مسرورة.

قام الأبناء من حولي وتركوني على حال يرثى لها ، وأنا أنظر لزوجتي غير مصدق ما يحدث داخل بيتي ، لم أجد غير ابنتي الصغيرة الوحيدة المتحمسة لقضاء إجازة معي .

"يالها من حياةٍ ، لا تستحق عناء عيشها" قلتها وأنا أقوم من مكاني أتحامل على قدمين لا تقويان على الاحتمال ، وشعرت أنَّ عمري قد زاد عشرة سنوات دفعة واحدة .

عدتُ لعملي مباشرة من اليوم التالي بعد أن وُئدت فكرة إجازتي قبل ولادتها حتى ، وزاد انخراطي في العمل ، وكأنني أحاول النسيان، أو لأثبت لنفسي أهميتي في تلك الحياة ، وتوالت الأعمال والأعباء، وزاد معها النجاح ، وأنا رجل لم أكن أعرف للفشل طريقًا ، ومع شعوري

المتزايد بالفشل داخل بيتي ، كان إصراري على النجاح في العمل يتزايد وبقوة، فعملت بكل قوة ، وتوالت النجاحات في العمل ، ومعها تزايد الفشل داخل البيت ، وازدادت الفجوة بيني وبين أبنائي ، ولا أكذب إن قلت أنه مع ازدياد تلك الفجوة كنت لا أشعر بوجود مشكلةٍ ما، فلم يأت واحد منهم ليشركني مشكلته ، إلا الصغار بالطبع ، وليس لكي يزدادوا مني خبرة أو لأن وجودي هام بالنسبة لهم ، بل لأنهم لا يستطيعون حل مشاكلهم بسبب صغر أعمارهم .

"لا نجاح يوازي نجاح الإنسان داخل بيته" لا أذكر أين قرأت تلك العبارة لكنها كانت تخالج مسامعي كثيرًا ، ومع كل مرة أفكر فيها أحاول الهرب للعمل بشدة واجتهاد بالغين ، ولأثبت لنفسي عكس ذلك ، لأرضيَ ذلك الصوت الداخلي الذي يخبرني بأنني إنسان ناجح بالفعل ، والدليل على ذلك هو هذا التقدم في مجال العمل ، أما البيت .... فلا تتعب نفسك بالتفكير فيه كثيرًا ، فمن لا يشكو من أبنائه ؟ انظر حولك .. هل ترى واحدًا لا يشكو ؟ الكل يشتكي .

وتوالت الأيام على هذا الحال وصار عملي هو بيتي ، وكما أخبرتكم من قبل لم أعد أبًا بل وتنحيت عن كل شيء جانبًا ، سواءً كان التنحي

بإرادتي ، أو بغير ذلك ، فالأمر لا يختلف كثيرًا ، فعادةً ما يبدأ بالتنحي من الآباء وبإرادتهم الحرة حيث أنهم يعتقدون الأمر مجرد نزوات من أبنائهم ، ولن يستمر هذا الوضع كثيرًا حتى يصل الأمر لحالة من التنحي الإجباري عندما تكون الأمور قد خرجت عن السيطرة ، وصار صوت الأولاد أعلى من صوت الآباء .

لكنني وفي يوم من الأيام قبل عودتي من العمل شعرت بذلك الدوار الذي صار يتردد عليّ بمعدلات متتالية ، لكنه هذه المرة كان أقوى ، وحاولت المقاومة ولكن هيهات فحالتي كانت تزداد سوءاً ، ولأنني كنت أتأخر وحدي في الشركة لم يكن هناك أحد من العمال موجودًا معي ، وتحاملت حتى أصل لتليفوني الخاص ، واتصلت برقم البيت ولا أعرف كيف فعلت ، وسمعت صوت أحد أبنائي يجيب على الطرف الآخر ، والدنيا تدور بي ، ضربات قلبي تتسارع ، بصعوبة بالغة فتحت فمي لأنطق ، وقلت بلسان متثاقل وشفتين كالجبال "إنني أموت ..." وسقطت سماعة الهاتف من يدي ، ومعها سقط جسدي معلنًا نهاية تلك المرحلة من حياتي ، رافعًا رايته البيضاء ، منتظرًا نهايته التي أظنها قد باتت وشيكة الحدوث .

إجازة اضطرارية

بعد أن تمَّ إسعافي ، أمرني طبيبي بأخذ إجازة اضطرارية لكي يتم فيها ضبط حالتي الصحية بعد الانتكاسة التي كادت أن تودي بحياتي، وقد كانت يد القدر رحيمة بي هذه المرة ، لكن هل ستكون رحيمة هكذا في المرات القادمة ؟ أم أنَّ صبرها سينفذ ، وأجد نفسي وقتها أدفع ضريبة عدم الاهتمام بصحتي .

آثرت أن أمكث في مستشفى طبيبي الخاص فترة نقاهة لكي أكون تحت رعاية طبية أنا في أشد الحاجة إليها هذه الأوقات ، ومرَّ اليوم الأول وأنا على سريري أستقبل من يأتي لزيارتي من الأهل والأصدقاء ، لكن سرعان ما ذهب الجميع وبقيت وحدي ، ومضيت أرتحل مع ذاكرتي ، أقلب صفحات حياتي أعيش مع ذكريات قديمة ، أتلذذ بسعادة أيام قد مضت ، وكأنني أحاول إعادة تصنيع الفرحة والسرور الغائبين عن حياتي هذه الأيام ، وكلما سافرت أبعد مع ذكرياتي كلما شعرت بحنين لتلك الأيام الخوالي ، أين ذهبت تلك البسمات الصافية ، أين توارت تلك الفرحة البريئة التي كانت تملأ وجه زوجتي مع قدوم مولودنا الأول ، بل وأين ذهبت أحلامنا ؟! ضاعت في زحام مشاكل

الحياة التي لا تنتهي .

لقد كانت أحلامي أكبر من كل شيء ، أكبر من المساحة المتاحة للأحلام في حياتنا على ما أعتقد ، ولهذا السبب كنت غريبًا عن كل من حولي ، من كثرة أحلامي كنت لا أباشر حياتي الطبيعية مع من هم في مثل عمري ، فكنت دائمًا أعيش أكبر من سني ، وأقفز فوق كل الحدود الممكنة . في شبابي كنت أخبر من حولي أني سأصبح صاحب شركة يومًا ما ، وقد كان ... فهل أنا سعيد الآن ؟! . عندي من الأموال ما يضمن لي عيشًا هانئًا طوال عمري دون عمل لو أردت ، ومع ذلك لا أشعر بسعادة ، لا أشعر بأمان ، بل على العكس أشعر بخوف يجتاحني من كل شيء . ماذا لو مت الآن ؟! ماذا لو انتهت حياتي على هذا النحو ؟! هل أنا راضٍ عنها ؟! هل أبنائي راضين عني ؟! هل زوجتي راضية عني ؟! هل أديت دوري في هذه الحياة كما ينبغي ؟! .

دارت كل هذه الأسئلة في رأسي دفعة واحدة ، شعرت بتعب يملأ كل ذرة في كياني ، سالت دموعي بغير إذن مني ، وكأنها تعلن لي أنها أيضًا قد أصبحت خارج نطاق سيطرتي ، وأن حياتي تحتاج مباشرة عمل مـــن جديد .

مرت عليّ أكثر من ساعتين على هذا الحال وأنا أفكر وأقلب كل شيء ألقاه من تفاصيل حياتي ، من طفولتي .... لصباي .... لشبابي، وآهٍ من شبابي ، لم يكذب الشاعر عندما قال :

ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب

كنت أسمع هذه الأبيات شابًا ، فأضحك وأسخر من هذا التفكير، وأقول في نفسي ماذا يريد من شبابه ، فترةً عاشها وانتهت ، عليه أن يفكر فيما تبقى من حياته ، وكم كان تفكيري قاصرًا ، حيث أنني الآن أفكر مثله تمامًا ، وأتمنى عودة أيام الشباب تلك .

"ماذا لو كانت هناك إمكانية العودة للوراء بالعمر؟ ، ماذا لو كنا نستطيع إيقاف عقارب الساعة التي تلتهم أعمارنا بغير هوادة ، بل ونجبرها على العودة في عكس الاتجاه ، وهي التي لم تجرب السير عكس الاتجاه أبدًا ، لذا فقد تروقها تلك التجربة ، فلعلها ليست راضية عن خنوعها لمصير لا يتغير ، ومضيت مع أفكاري تلك حتى اقتحمني النوم ، فكانت له الغلبة .

... ورأيت أثناء نومي وكأنني مصارع روماني مفتول العضلات

عاري الصدر ، أقف وسط حلبة رملية كبيرة تعج بملايين المشاهدين، وتتعالى أصواتهم في جلبة تصم الآذان ، وأنا أرغي وأزبد ويتطاير الشرر من عيني ، وأنظر لمنافسيّ ، هذين العقربين العجوزين الذين لا يقويان على الحركة من كثرة ما تحركا ، وانقضضت عليهما بالفعل ، وكنت جسورًا لا أخشى شيئًا ، وظل الصراع طويلاً ، فقد اكسبتهما حركتهما الطويلة حنكة وخبرة ، لكنهما سقطا في النهاية ، وتعالت الأصوات سعيدة بهذا الانتصار الذي انتظره الجميع ، وانقض الجمهور على العقربين وحملوهما وهما يلفظان أنفاسهما الأخيرة ، وقاما بإلقائهما في الوادي السحيق ، وحملوني على الأعناق وهم يهتفون بي ، إيذانًا ببداية عصر جديد لا تجثم فيه عقارب الساعات فوق صدورنا لتكدِّر علينا حياتنا .

وبعد الانتصار الساحق أقيمت الولائم ونصبت الموائد ، واستغرق الجميع في نوم عميق ، وقمت من نومي لا أعرف متى قمت بل ولا متى نمت ، وكم كان ذلك ممتعًا ، أن لا يقيِّد الوقت تصرفاتك وأعمالك ، وكان ذلك شعور الجميع ، أن تنعم بالهدوء والسكينة بعيدًا عن مطاردة الأوقات .

لكنه وبعد عدة أيام وجدت حشود الناس تتجمع حول بيتي ، والكل ثائر حانق ، فهذا فسدت زراعته لإهماله أوقات ري المزروعات، وهذا توقف نشاطه التجاري فقد صار الأمر غير واضح بالنسبة له ، لا يعرف متى يبدأ ولا متى ينتهي ، وهذا خسر قضيته فلم يعرف متى موعد الحكم فيها ، وهذا ..... وهذا ..... إلخ .

وعمَّت الفوضى كل مكان ، وفوجئت بالناس يقتحمون منزلي ، ويريدون الفتك بي، وبعد أن كنت محمولاً على الأعناق منذ فترة وجيزة ، أصبحت الآن مطاردًا ، والسبب أنني أفسدت كل شيء بقضائي على عقارب الساعة ، وعبثًا حاولت الشرح ، وركضت من أمامهم وهم يركضون خلفي تسابق الريح أقدامهم ، وأنا أحاول الفرار وهم يقتربون ويقتربون حتى سقطت على وجهي ، قمت سريعًا وأنفاسي تتلاحق أسقط وأقوم ، أزحف حتى نفدت كل ذرة من ذرات الطاقة بداخلي ... أسمع صوت أقدام تقترب ، وقعت وقتها لا أقدر حتى على رؤية ما حولي ، وانهال عليّ المطاردون بالسباب ، وامتدت يد تحمل سكينا كبيرًا ، وكأنه يعبر عن حنقهم المتزايد ، وغرزت السكين في قلبي .

و..... استيقظت على إثر تلك الضربة من نومي ، وتحسست أنفاسي .... الحمد لله . وبعفوية نظرت إلى ساعتي لأعرف كم الساعة الآن ، لكني توقفت وأنا أنظر لعقارب الساعة وابتسمت رغمًا عني وحمدت الله على نعمة الوقت ، وأيقنت أنه لا فائدة من العودة للوراء .

من قصيدة " كن أبًا ولا تتنح جانبًا"

حتى قابلَ يومًا رجلاً تَقْطُرُ بالحكمةِ شَفتاه